المذهب الشكي في الفكر الفلسفي
ودوره في تحصيل اليقين عرض وتحليل

إعداد
مصطفى سليم السيد عطية
لجنة الفتوى بالأزهر الشريف

المذهب الشكي في الفكر الفلسفي ودوره في تحصيل اليقين

"عرض وتحليل"

مصطفى سليم السيد عطية

لجنة الفتوي بالأزهر الشريف – مصر

البريد الألكتروني :mustafa012810@gmaiL.com .

الملخص :

يهدف البحث إلى إبراز دور التعاون الفكري ، باعتبار الفكر لم يكن مبتور الصلة منذ وجود الإنسان على ظهر الأرض ، **ولما كان الفكر هو :** ترتيب أمور معلومة تؤدي إلى أمور مجهولة ، والفكر بلا شك أمر ملازم للإنسان منذ أن وجدت البشرية على ظهر الأرض ، فالشك واليقين من أهم وأبرز الأمور الملازمة للبشرية عبر التاريخ ، أي منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة ، وهذا بلا شك يرجع إلى العالم الإلهي الشامل المحيط بكل شيء ، والذي يعلم ما بين أيدي الخلائق جميعاً من الأمور المستقبلة ، التي لا نهاية لها (وما خلقهم) من الأمور الماضية التي لا حد لها ، وتأسيساً على هذا كان موضوع البحث في الفكر الفلسفي نظراً لما أثير في هذا الجانب من "الشك واليقين" وما دار حوله من أخذ ورد ، ومجادلات ومنازعات كبيرة بين المذاهب والاتجاهات المختلفة سواء في الفكر القديم أو العصور الوسيطة من (المسيحية والإسلام) أو العصور الحديثة والمعاصرة.

الكلمات المفتاحية :المذهب – الشك – اليقين – الفكر الفلسفي– عرض – تحليل.

Skeptic Doctrine in the Philosophical Thought and its Role in Achieving Faith "Presentation and analysis"

Mustafa Selim El-Said Atia

El-Fattwa committee, Al-Azhar A-Sharif, Egypt

E-mail: mustafa012810@gmaiL.com

Abstract:

The research aims to highlight the role of intellectual cooperation considering that thought has not been torn apart since the existence of man on Earth. Whereas thought is: arranging known matters that lead to unknown matters, doubt and faith are the most important and the most prominent things inherent to humans since humanity was found on the surface of the earth, that is, from the time of our master Adam, peace be upon him, until the Hour begins. This is no doubt due to the comprehensive Divine World surrounding everything. And Who knows what is in the hands of all creatures from the future matters, which have no end and what was behind them from the past things that had no limit. Based on this, the topic of the research was in philosophical thought that was due to what was raised in this aspect of "doubt and faith" and what was circulated around it in terms of agreement and disagreement, great arguments and disputes between different

doctrines and trends, whether in ancient thought or the medieval ages of (Christianity and Islam) or modern and contemporary eras

Key words: Doctrine, Skeptic, Philosophical Thought, Faith, Presentation, Analysis

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة الكاملة ، وجعل الإسلام العظيم ديناً قويماً.

والصلاة والسلام على من اختصه الله سبحانه وتعالى بالحكمة وفصل الخطاب، يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ [1].

أما بعد

فإن الله تبارك وتعالى بقدرته وحكمته وعلمه وإرادته قد خلق الإنسان ، وعلمه البيان وهداه إلى الحق والصراط ، قال تعالى : (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) [2].

ومن هنا كانت حكمة الله سبحانه وتعالى – في خلق الإنسان هدايته وإرشاده إلى طريق الحق والإيمان واليقين ، والبعد عن اتباع هوى النفوس[3] والأغراض والكفر والشرك والإلحاد ، فميزه الله – عز وجل – وكرمه ومنحه العقل الذي به يعصم الضمير ويدرك الحقائق ، ويوازن به بين الأمور ، من الخير والشر ، والحق والباطل ، والصالح والطالح ، والأمر بالمعروف والبعد عن المنكر ، أي : عدم اللجوء إلى إثارة الفتنة والكره والبغضاء والعداوة بين الناس جميعاً ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ) [4].

([1]) سورة البقرة (٢٦٩).
([2]) سورة الأنعام الآية (١٥٣).
([3]) والنفوس : كما ذكرها القرآن الكريم ثلاث : نفس آمنة مطمئنة ، ونفس لوامة ، أي تلوم صاحبها عند ارتكاب الذنب ونفس أمارة بالسوء ، أعاذنا الله منها.
([4]) سورة الحجرات الآية ١٣.

وبذا ، فقد حث الخالق العليم الحكيم الناس جميعا على المحبة والمودة والقرب والتعاون بين الناس جميعاً سواء أكان هذا التعاون مادياً أم معنوياً أم فكرياً ... إلخ (قال تعالى) : (وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ) [1].

ولما كان من جوانب التعاون : التعاون الفكري ، باعتبار الفكر [2] لم يكن مبتور الصلة منذ وجود الإنسان على ظهر الأرض ، بل أيضاً (أي الفكر) سلسلة متصلة الحلقات ، يتصل فيها الحاضر بالماضي فيتأثر منه ويؤثر الماضي في الحاضر وهذا التأثير والتأثر قد يكون إيجابياً ، فيردد اللاحق أفكار السابق ، ويضيف عليها وينميها ويطورها ويسمو بها ، وقد يكون التأثر بالسلب ، فيقف اللاحق من السابق موقف الناقد المعارض لأفكاره فيردوها عليه ويناقشها ويفندها ويبطل ما فيها من حجج واهية ويظهر ضعفها وتهافتها.

ولما كان الفكر هو : ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى أمور مجهولة ، والفكر بلا شك أمراً ملازماً للإنسان منذ أن وجدت البشرية على ظهر الأرض.

فالإنسان على الرغم من أن الله سبحانه وتعالى – بعلمه الأزلي القديم ، وبحكمته وهو الحكيم الخبير – جل شأنه – قد فطر الناس جميعاً على الفطرة[3]

---

(1) سورة المائدة من الآية (٢).

(2) الفكر : هو ترتيب أمور معلومة للتأدي إلى مجهول ، انظر التعريفات ، للسيد الشريف الجرجاني باب : الفاء – فصل : الكاف – ص ٢١٦ – تحقيق وتعليق : أ.د عبد الرحمن عميرة – عالم الكتب – الطبعة الأولى – سنة (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م) ، وقيل : الفكر أيضاً : حركر النفس في المعقولات سواء كانت بكلب أو بغير طلب أو كانت من المطالب إلى المبادئ ، أو من المبادئ إلى المطالب .... ، والفكر هو أن ينتقل الإنسان من أمور حاضرة في ذهنه متصورة أو مصدق بها تصديقاً علمياً أو ظنياً أو وضعياً أو تسليماً ، إلى أمور غير حاضرة فيه انتقالاً لا يحلو من ترتيب ، انظر في ذلك : المعجم الفلسفي ، أ.د/ عبد المنعم الحفني – ص ٢٣٩ – باختصار – الدارس الشرقية – الطبعة الأولى سنة (١٤١٠هـ - ١٩٩٠م)

(3) الفطرة : هي الجبلة المتهيئة لقبول الدين ، وفطر الله – سبحانه وتعالى – الخلق ، وهو فاطر السماوات مبتدعها ، وافتطر الأمر ابتدعه ، وكل مولد يولد على الفطرة ، أي على الجبلة القابلة

الطاهرة النقية الخالصة من شراب الشرك وأدران الوثنية ، ومنحه العقل السليم المدرك الواعي ، والنفس الآمنة المطمئنة إلا أن الإنسان على مرور الزمان واختلاف العصور المتفاوتة ، وفي فترة ما بين الرسل والأنبياء عليها جميعاً الصلاة والسلام. ينازعه عاملان أساسيان ، وهما : عامل الشك وعامل اليقين ، وذلك للبحث عن الحق واليقين ، فالكل يبحث ويجتهد في البحث للوصول إلى تحصيل الحق وإدراك اليقين : فمنهم من يبحث ويجتهد في البحث ويصل إلى الحق واليقين ، ويحصل المقصود ، ومنهم أيضاً من يبحث ويجتهد في البحث ولم يحصل المقصود، وما سبيل النجاة عنهم ببعيد.

والحق أمراً : الشك واليقين من أهم وأبرز الأمور الملازمة للبشرية عبر التاريخ، أي منذ سيدنا آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة ، وهذا بلا شك يرجع إلى العالم الإلهي الشامل المحيط بكل شيء ، والذي يعلم ما بين أيدي الخلائق جميعاً من الأمور المستقبلة ، التي لا نهاية لها (وما خلقهم) من الأمور الماضية التي لا حد لها ، وأن الخلق لا يحيط أحد بشيء من علم الله سبحانه وتعالى ومعلوماته (إلا ما شاء) منها. وهو ما أطلعهم عليه من الأمور الشرعية والقدرية ، وذلك كما قام أعلم الخلق به ، وهم الرسل عليهم الصلاة والسلام ، والملائكة الكرام (قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ) [1].

ولا أدل على ذلك لما طلبه سيدنا إبراهيم عليه السلام – وهو من أولي العزم من الرسل – من ربه أن يريه كيف يحي الموتى [2] فقال الله له : (أو لو تؤمن) : أي ليزيل رب العزة الشبهة من خليله ، قال : أي سيدنا إبراهيم عليه السلام (بلا) يا

لدين الحق ، انظر التعريفات ، والجرجاني ، باب : الفاء – فصل : الطاء – ص ٢١٥ – نصاً وهامشاً.

([1]) سورة البقرة آية (٣٢).

([2]) نفس السورة الآية (٢٦٠).

رب ، قد آمنت تمام الإيمان واعتقدت خالص الاعتقاد ، أنك على كل شيء قدير ، وأنك تحيي الموتى ، وتحاسب العباد ، ولكن أريد أن يطمئن قلبي ، وأصل من علم اليقين إلى درجة "عين اليقين"[1]... وقس على ذلك الكثير مما حصل خلال دعوة الأنبياء عليهم السلام مع أقوامهم ، وما حدث بين البشر بعضهم بعضاً إلى الآن وإلى أن تقوم الساعة ، أو يقضي الله أمراً كان مفعولا.

وتأسيساً على هذا ، فقد قمت – بعون الله سبحانه وتوفيقه – باختيار هذا الموضوع ومعالجته قدر المستطاع ، وخصوصاً في الفكر الفلسفي ، ونظراً لما أثير في هذا الفكر وحول هذا الموضوع "الشك واليقين" ، بووجه خاص من أخذ ورد ، ومجادلات ومنازعات كبيرة بين المذاهب والاتجاهات المختلفة سواء في الفكر القديم أو العصور الوسيطة من (المسيحية والإسلام) أو العصور الحديثة والمعاصرة.

وهذا فإن دل فإنما يدل على المنهج العظيم الذي رسمه الله سبحانه وتعالى لعباده بعد أن خلقهم على الفطرة الطاهرة النقية (فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ) [2].

وقول النبي الخاتم ﷺتركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي أبداً ، كتاب الله وسنتي[3] صلى الله عليه وسلم وبارك عليك يا سيدي يا رسول الله.

أسباب اختيار الموضوع :

أما عن الأسباب التي دفعتني إلى اختيار هذا الموضوع ، فإنها تتمثل فيما يلي:

([1]) انظر : مفاتيح الغيب / للإمام / فخر الدين الرازي – م٣ – ج٧ – ص ٣٩ – ٤٠ – باختصار – الطبعة الثالثة – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – بدون تاريخ.

([2]) سورة الروم من الآية (٣٠).

([3]) أخرجه الإمام البخاري في صحيحه كتاب / الجنائز – باب رقم ٩٢ رقم الحديث (١٣٨٥) والإمام / مسلم في صحيحه – كتاب / القدر – باب / ٢٢.

أولاً : الوقوف على المفهوم الحقيقي لمبدأي (الشك واليقين).

ثانياً : كيفية الخروج من مبدأ الشك إلى مبدأ اليقين.

ثالثاً : كيف كانت النشأة التاريخية لمبدأي الشك واليقين ، وما الدوافع والأسباب التي أدت إلى قيام هذه المسألة الشائكة.

رابعاً : كيف كان دور الشك واليقين في العصور القديمة قبل الإسلام وكيف كان دور الاعتقاد ذلك الوقت وما هو دور المعالجة الذي قاموا به في محاولة الوصول إلى اليقين.

خامساً : ما هو دور فلاسفة الإسلام في معالجة تلك الظرية ، وما هي الدوافع التي قاموا من أجلها ، وما هي نقاط الانطلاق التي انطلقوا منها واعتمدوا عليها في التحليل والمناقشة ، ورد الدليل بالدليل والبرهان بالبرهان والحجة بالحجة.

سادساً : كيف كان نازع الشك واليقين لدى فلاسفة العصر الحديث ، وما هو الدور الذي قاموا به في عرض أفكارهم ومعالجة هذه المشكلة من خلال معتقدهم الذي يدينون به.

سابعاً : كيف كان دور الإسلام العظيم – بمصدريه القرآن الكريم والسنة المطهرة ومنكريه في معالجة هذا الموضوع "الشك" ذات الأهمية الكبرى في تاريخ البشرية.

أما عن منهجي في البحث فقد قام على النحو التالي :

أولاً : تتبعت النشأة التاريخية لهذه المسألة ، ثم الدوافع والأسباب التي أدت إلى قيامها وإثارتها ، وكيف نمت وتطورت عبر العصور المتفاوتة.

ثانياً : اقتصرت في كل عصر من العصور على نموذج أو اثنين من أهم فلاسفتهم الذين لهم جهود بارزة في هذا المجال وذلك للتعرف على مدى معتقدهم الديني[١] وكيفية معالجتهم للفكرة.

ثالثاً : قمت بتحليل أقوال فلاسفة كل عصر حول هذه المسألة التي نحن بصددها وناقشتها قدر الإمكان من خلال المعتقد الإسلامي العظيم.

رابعاً : قمت بعزو الأقوال والأفكار إلى أصحابها ومن مصادرها الأصلية ، واستعنت ببعض الكتب الثانوية انطلاقاً من باب العلم رحم بين أهله ، كما كنت ناقلاً لأقوال والأفكار من غير تعصب ولا تخرب ، انطلاقاً من قول الإمام الشهرستاني[٢] رحمه الله :- "وشرطي على نفسي أن أورد مذهب كل فرقة على ما وجدت في كتبهم من غير تعصب لهم ولا كسر عليهم"[٣].

خامساً : قمت بعزو الآيات القرآنية إلى سورها مع ذكر رقم الآية أو الآيتان أو الثلاث إذا اقتضى الأمر ذلك ، كما قمت بتخريج الأحاديث النبوية الشريفة ، من مصادرها الأصلية.

---

(١) تجدر الإشارة إلى أن معرفة المعتقد الديني أو الوقوف على بعض جوانبه تؤدي بالإنسان إلى الإدراك الحقيقي لكيفية المعالجة لأي فكرة أو مسألة ، من قبل أي مذهب من المذاهب ، أو فرقة من الفرق لأن المعتقد هو الأصل أو المنبع الأول للانطلاق في معالجة القضايا والنظريات الفكرية.

(٢) الشهرستاني ولد عام ٤٧٩هـ هو مدين عبد الكريم بن احمد ، أبو الفتح الشهرشتاني ، من فلاسفة الإسلام ، وكان إماماً في علم الكلام وأديان الأمم ومذاهب الفلاسفة ، ولد في شهرستان – بين (نيسابور ، وخوارزم) وانتقل من إلى (بغداد بالعراق) سنة (٥١٠ هـ) ، وأقام بها ثلاث سنين ثم عاد إلى بلده (شهرشتان) وتوفى بها سنة (٥٤٨ هـ) رحمه الله رحمة واسعة ، وله مؤلفات عديدة ، من أهمها : الملل والنحل ، ونهاية الأقدام في علم الكلام ، والأرشاد إلى عقائد العباد ، انظر في ذلك : الأعلام لخير الدين الزركلي – ج ٦ – ص ٢١٥ – الناشر : دار العلم للملايين – ط (١٥) سنة (٢٠٠٢) م.

(٣) الملل والنحل ، الشهرستاني – ج١ – ص ١١ – دار ابن حزم – ط (١) سنة (١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م).

سادساً : قمت بتعريف لبعض الأعلام ، والمصطلحات التي تم ذكرها في ثنايا البحث.

سابعاً : كان منهجي في هذا البحث منهجاً تكاملياً بمعنى أنني قمت بتتبع الفكرة أو المسألة تاريخياً ، واستخدمت المنهج النقدي والتنفيذي والتحليلي ... إلخ ، والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

**** أما عن خطة البحث ، فإنها تتمثل في التالي :**

لقد قمت – بتوفيق الله تعالى – بتقسيم البحث ، والذي عنونته باسم : (المذهب الشكي في الفكر الفلسفي ودوره في تحصيل اليقين)

عرض وتحليل

إلى مقدمة ، ومدخل وثلاثة مباحث ، وخاتمة.

المقدمة : وتناولت فيها أهمية الموضوع ، وأسباب اختياره ، والمنهج الذي سلكته في البحث ، ثم خط إعداد البحث.

والمدخل : وسقت فيه : التعريف بمبدأي : الشك ، واليقين ونشأتهما التاريخية.

المبحث الأول : الشك المطلق ، أو الحقيقي – الشك المذهبي.

المبحث الثاني : الشك المنهجي – المعرفي.

المبحث الثالث : موقف الإسلام الحكيم ، وعلماء العقيدة من "المذهب الشكي" بوجه عام.

وأما الخاتمة : فقد تناولت فيها :

الفهارس ، والتي تتمثل في التالي :

١- فهرس المصادر والمراجع المعتمد عليها في إعداد البحث.

٢- فهرس الموضوعات.

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد والهادي إلى سواء السبيل

المدخل

التعريف بكل من الشك واليقين

ويتمثل فيما يلي :

أولاً : التعريف بالشك ونشأته التاريخية.

ثانياً : التعريف باليقين والتيقن وكيفية تحققهما

المدخل

التعريف بكل من الشك واليقين

أولاً : التعريف بالشك ونشأته التاريخية

– **الشك** : في اللغة : شك الشيء – شكاً : لصق بعضه ببعض واتصل. وفي الأمر وغيره : ارتاب[١] ، والشك : ضد اليقين ، وقد شك في كذا من باب رد وتشكك وشككه فيه : غيره[٢].

– **والشك في الاصطلاح** : هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما عند الشاك ، لجهله بوجود مزية لأحدهما على الآخر[٣] ، ولذلك قبل "الشك" ضرب من الجهل ، ويقابل العلم ، وهو أخص من الجهل ، لأن الجهل قد يكون عدم علم بالنقيضين ، وليس الشك كذلك ، إذن : فكل شك جهل وليس العكس ، والشك أن ترجح أحد طرفيه ولم يطرح الآخر فهو الظن ، فإذا طرحه فهو غالب الظن ، وهو بمنزلة اليقين[٤].

– **والفرق بين** : الشك والريب : أن الشك : ما استوى فيه اعتقادان ، أو لم يستويا ولكن لم ينته أحدهما إلى درجة الظهور ، بينما الريب لم يبلغ درجة اليقين وإن ظهر بعض الظهور ، ولذلك يقال : شك مريب ، ولا يقال ريب مشكك ويقال

---

(١) انظر : مجمع اللغة العربية – المعجم الوجيز – ص ٣٤٨ – طبعة خاصة بوزارة التعليم العالي – سنة (١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م).

(٢) انظر : مختار الصحاح ، للشيخ الإمام / محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي – رتبه أ/ محمود خاطر بك – ص ٣٤٤ – المطبعة الأميرية بالقاهرة – سنة (١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦م)

(٣) انظر : التعريفات ، للسيد الشريف الجرجاني – تحقيق وتعليق أ.د/ عبد الرحمن عميرة – باب الشين – فصل : الكاف – ص ١٦٨ – الطبعة الأولى – سنة (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧م)

(٤) انظر المعجم الفلسفي – أ.د. عبد المنعم الحفني – ص ١٥٨ – الدار الشرقية – الطبعة الأولى – سنة (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠م).

أيضاً : "رابني" ولا يقال "شكني" ، فالشك إذن سبب الريب ، كأنه شك أولاً فيوقعه شكه في الريب ، فالشك مبدأ الريب ، كما أن العلم مبدأ اليقين[١].

وعلى كل فإن الشك لفظ يراد به المذهب القائل بأن معرفة الحقائق في هذا العالم لا يمكن الوصول إليها ، أو يشك في الوصول إليها فهو مذهب هادم لفلسفة ، لأن الفلسفة ليست إلا السعي لمعرفة حقائق هذا الكون[٢].

أما عن النشأة التاريخية لنزعة الشك : فالواقع أن الفكر والمعرفة سلسلة متصلة الحلقات يتصل فيها الحاضر بالماضي ، ويتأثر فيها اللاحق من السابق ، ويؤثر السابق في اللاحق ، فقد يكون التأثر بالإيجاب أي يردد فيها اللاحق أكار السابق ، وقد يكون التأثر بالسلب ، أي يقف اللاحق من أفكار السابق موقف الناقد والمعارض له.

ولما كان الشك نزعة إنسانية لا مفر منها ، فقد قامت الفلسفة الشكية بمحاولة تفحص صدق ما جاء به الفلاسفة السابقين عليهم وعبروا عنه بمناهجهم الفلسفية ويبدو أن ما جاءت به المدرسة الأبيقورية[٣] ، والمدرسة الراوقية [٤] ، من مناهج

---

(١) نفس المصدر السابق – ص ١٥٨ – باختصار.

(٢) انظر : قصة الفلسفة اليونانية – أ.د. أحمد أمين ، أ.د. زكي نجيب محمود – ص ٣٠٥ – مطبعة دار الكتب المصرية – سنة (١٩٣٥).

(٣) الأبيقورييون : نسبة إلى "أبيقور" الذي عاش دين سنتي : (٣٤١ – ٢٧٠ ق.م) ، ولد في (ساموس) وطوف في كثير من البلدان ، وانتهى به المطاف في (أثينا) وأنشأ في دار بها مدرسة ، وحديقة يجتمع فيها تلاميذه ، ولذا سموا بفلاسفة الحديقة ، انظر في ذلك : الفلسفة الإسلامية وصلاتها بالفلسفة اليونانية – تأليف أ.د. محمد السيد نعيم ، أ.د. عووض الله جاد حجازي – ص ٨٥ ط (١) – دار الطباعة المحمدية سنة (١٣٧٩ هـ - ١٩٥٩م)

(٤) الرواقيون : مدرسة معاصرة المدرسة الأبقورية ، أسسها (زينون) الذي عاش بين سنتي (٣٣٦ – ٢٦٤ ق.م) وعبر (زينون الإيليائي) وكانت هذه المدرسة في مدينة (أثينا) أحد الأروقة التي كانت معدة لمباريات الشعراء والأدباء ، وعرض التماثيل الفخمة ، ولذا سمي أصحابه بالرواقيين ، وكانت مهمة هذه المدرسة انحصر في معرفة الغاية التي يجب أن يصل إليها الإنسان فتحقق بها سعادته في الحياة ، انظر : الفلسفة الإسلامية وصلاتها باليونانية – المصدر السابق – ص ٨٩.

فلسفية في المعرفة ، وفي عصر مضطرب فكرياً ، ادى إلى رد فعل عبر عنه بعض الفلاسفة بأسلوب "شكي" ، واعتبروا أن مثل هذه المعرفة غير مثبتة ، وبذلك تميزت فلسفتهم "بالشكية"[١].

وقد قيل : إن للنزعية "الشكية" جذور في المرحلة قبل "السقراطية" ، حيث إن "بارمنيدس الإيلي"[٢] ، قد شك في "المعرفة الحسية" ، كما أن "هيراقليطس"[٣] : شك في "المعرفة العقلية" ، واعتبر كل شيء متغير ، حيث نقل عنه هذا القول "المأثور": "إن الواحد لا يستطيع أن يعبر النهر مرتين" ، وقد تطور هذا المفهوم عند أحد الفلاسفة[٤] ، والذي ذهب بالقول : إنه مدام كل شيء متغير ، فالواحد لا يستطيع أن يعبر النهر مرة واحدة وفي نفس النهر لأن النهر والذات الإنسانية متغيران وقد وصل به الشك إلى اعتبار أن الاتصال بين الأفراد مستحيل ، ما دام المحدث ، والمستمع ، والكلمات تتغير ، مما أدى به إلى الصمت ورفضه المناقشة ، والاكتفاء

---

(١) انظر : المرجع في الفكر الفلسفي نحو فلسفة توازن بين التفكير الميتافيزيقي والتفكير العلمي – أ.د. نوال الصراف الصايغ – ص ١١١ – ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي – أوتاوا – كندا – سبتمبر – سنة (١٩٨٢م)

(٢) بارميندس الإيلي : فيلسوف يوناني من (إيليل) في جنوب إيطاليا ، وزعيم المدرسة الإيلية – وهو الذي وضع مذهب الحقيقة القائل بأن الوجود الحقيقي واحد وأبدي وثابت ولا ينقسم وخال من الخواء. وقد عاش على أرجح الظن في نهاية القرن السادس وأوائل القرن السابع قبل الميلاد ، وكان له منزلة كبيرة عند أفلاطون والفلاسفة العقلنيين ، انظر في ذلك : معجم الفلاسفة – إعداد أ.د. جورج طرابيشي ، ص ١٣٨ – دار الطليعة – بيروت – ط (٢) سنة (١٩٩٧م) ، ومعجم الفلاسفة المختصر – أ.د. خلف الجراد – ص ٣٩ – ط (١) – سنة (١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م) – دار : محمد – المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

(٣) هيراقليطس : ولد سنة (٥٤٤ ق.م) ، وتوفى سنة (٥٨٣ ق.م) – وهو فيلسوف مادي يوناني من مدينة أفسوس ، وهي مدينة يونانية في آسيا الصغرى وهراقليطس من أسرة أرستقراطية ، انظر في ذلك : معجم الفلاسفة المختصر – أ.د. خلف الجراد – ص ٢٥٤.

(٤) وهو فيلسوف يوناني : كريتيلاس ، الذي سار على نهج أستاذه "هيراقليطس" ، انظر في ذلك : المرجع في الفكر الفلسفي – أ.د. نوال الصراف الصايغ – ص ١١٢.

بالإشارة بإصبعه ، بأنه استمع إلى ما يناقش ، ولكن لم يجد الحاجة إلى الإجابة ما دام كل شيء متغير[١].

– والحاصل أن مذهب الشك هذا ، قد ظهر في عصور مختلفة في تاريخ الفلسفة ، فقد ظهر في عصر السوفسطائيين[٢] ، وعندهم ، حيث ذهب جورجياس[٣] – أحد زعماء السوفسطائيين – بالقول : إننا نشك في وجود الأشياء ، وإن كانت موجودة ، فلا سبيل إلى معرفتها[٤].

هذا ، وبملاحظة تاريخ "الفلسفة" ، فإنه يتبين لنا : "أن نوع الفلسفة الذي يعتمد على التفكير الذاتي ، أعني : تفكير الإنسان في نفسه وعقله فقط ، يعقبه دائماً الشك وذلك لأن المعرفة هي علاقة بين : العقل والشيء الخارجي ، فإذا اقتصر الباحث على النظر إلى عقله ونفسه مهملاً في الخارج أداه إلى إنكار ما في الخارج من حقائق.

لذا فلما اقتصر "الأبيقوريين" ، و"الرواقيين" على هذا النوع من التفكير النفسي والأخلاقي ، أسلم ذلك إلى الشك ، حيث انحطت القوى الروحية للأمة ، وصل العقل البشري ، والنفس الإنسانية من التفكير في ذاتهما ، وفقد الثقة بأنفسهما ، فجاءهما : "الشك" في إمكان الوصول إلى الحقيقة[٥].

---

(١) نفس المصدر السابق – ص ١١٢.

(٢) جورجياس : فيلسوف "سفسطائي" يوناني من صقلية ولد سنة (٤٨٣ ق.م) وتوفى سنة (٣٧٥ ق.م) ، وقد جمع مذهب النسبية عند (بروتاغوراس) إلى اللاإرادية ، انظر في ذلك : معجم الفلاسفة المختصر – أ.د. خلف الجراد – ص ٧٠.

(٣) السوفسطائيون : هم جماعة قاموا بإنكار المعرفة وشكوا في البديهيات ، وهدموا حقائق الأشياء وقواعد الأخلاق وأنكروا الآلهة ، وقالوا لا وجود لها إلا في الخيال ... إلخ ، انظر في ذلك : المعجم الفلسفي ـ.د. عبد المنعم الحفني – ص ١٤٧ ، وكتاب : الفلسفة الإسلامية وصلتها بالفلسفة اليونانية – أ.د. عوض الله جاد حجازي – أ.د. محمد السيد نعيم – ص ٤١- باختصار.

(٤) انظر : قصة الفلسفة اليونانية – أ.د. أحمد أمين ، أ.د. زكي نجيب محمود – ص ٣٠٥.

(٥) انظر : المصدر السابق ص ٣٠٥ – ٣٠٦.

– **وعلى الجملة :** فقد توسع المفهوم الشكي وتطور في الفلسفة اليونانية[١] ، فظهرت في العصر الهيليني[٢] ، مدرستان : الأولى : المدرسة "البيرونية" ، نسبة إلى مرسسها "بيرون"[٣] ، والمدرسة الثانية : "الأكاديمية الجديدة"[٤] ، وهي "الأكاديمية الأفلاطونية" ، ومؤسسها : "أركازيلاس"[٥] ، وأهم وأبرز فلاسفتها "كارتيادس"[٦].

---

(١) كذلك في الفلسفة الحديثة : فقد كان زعيم الشكاك "ديفيد هيوم" – الذي أبان : أن وسائل المعرفة التي يعتمد عليها العقل البشري ، كالعلة والمعلول والسبب والمسبب والجوهر والعرض ، ونحو ذلك ليست إلا وهما وخداعا ، ومن ثم لا تمكن المعرفة وهذا الشك سماه (ديفيد هيوم) – وهو من أصحاب المذهب التجريبي – بالشك العلمي ، وقرر أن الفلسفة لا بد أن تقوم على أسس شكلية ، انظر في ذلك : أسس الفلسفة – أ.د. توفيق الطويل – ص ٣١٨.

(٢) الهيليني : نسبة إلى الفلسفة الهيلينية – اليونانية أو الإغريقية – التي عرفت بمرحلة ما بعد سقراط وإن عاصرت زمنياً (الفلسفة الأرطوطاليسية) التي تلت كلاً من : فلسفة سقراط وأفلاطون ، إلا أنها اختلفت عنها فكرياً ... حيث اهتمت الفلسفة الهيلينية بإمداد الفرد بلوائح من السلوك ، تمكن من إيجاد طريقة في الحياة مبنية على الأخلاق والفضائل في أعماله.

- وتنقسم الفلسفة الهيلينية إلى مراحل ثلاث : الأولى تمتد من القرن الرابع ق.م – حتى القرن الأول بعد الميلاد ، وتتميز بظهور الفلسفة الشكية والتي اهتمت بنقد التفكيرين الفلسفيين : الميتافيزيقي والعلمي من حيث الوصول إلى المعرفة اليقينية والمرحلة الثالثة : وتمتد من منتصف القرن الثالث الميلادي وحتى منتصف القرن السادس والسابع الميلاديين ، وهي مرحلة الأفلاطونية المحدثة ، والتي تميزت بمحاولة الجمع بين الأفلاطونية والأرسطوطاليسية ، أو التفكير الميتافيزيقي ، والتفكير العلمي ، وقد كان لها أثر كبير على الفكر الأوروبي ، انظر : المرجع في الفكر الفلسفي أ.د. نوال الصراف الصايغ – ص ١٠١ – ١٠٢ باختصار.

(٣) البيروت الإيلي : ولد سنة (٣٦٥ ق.م ، وتوفى سنة ٢٧٥ ق.م) ، وهو فيلسوف يوناني مؤسس النزعة الشكية القديمة ، وقد اهتم كثيراً بدراسة الأخلاق ومشكلات السعادة وتحقيقها ، انظر : معدم الفلاسفة المختصر – أ.د. خلف الجراد ص ٥٨.

(٤) الأكاديمية الجديدة : مدرسة أنشأها أفلاطون بعد سنة (٣٨٧ ق.م) ، واتخذ مقرها بقرب حديقة تسمى "أكاديميكا" ومن ثم اشتهرت المدرسة بهذا الاسم ، وظلت مفتوحة حتى أغلقها (حستنيات) باعتبارها مدرسة فكر وثني سنة (٥٢٩م) ، انظر : المعجم الفلسفي أ.د. عبد المنعم الحفني – ص ٢٩ ، وقيل هي مدرسة فلسفية غريبة تتبنى فكرة الاحتلال ، وتحكم باستحالة اليقين ، وتقابل الأكاديمية القديمة مدرسة أفلاطون.

(٥) أركاز بلاس : فيلسوف يوناني ، ومؤسس المدرسة الأكاديمية الجديدة ، وهي الأكاديمية الأفلاطونية.

(٦) كارنيادس : فيلسوف يوناني ومن أبرز ممثلي "الأكاديمية".

وعلى الرغم من أن الفلسفة الشكية قد انبثقت عن المدرسة البيرونية إلا أنه في مدرسة الأكاديمية الجديدة : اعتبرت النزعة الشكية كمنهج فلسفي[١]. وفي المباحث القادمة – إن شاء الله تعالى – سوف نتعرف على كل ذلك بشيء من البيان والتوضيح ، ولكن يعد أن أتناول – بإيجاز يغني عن التفصيل – مفهوم : اليقين والتيقن وكيفية تحصيلهما.

ثانياً : التعريف باليقين والتيقن ، وكيفية تحصيلهما :

١- اليقين والتيقن في اللغة :

ذهب علماء العربية إلى أن اليقين في اللغة : هو العلم وزوال الشك يقال منه (يقنت) الأمر من باب : طرب ، و (أيقنت) و (استيقنت) ، و (تيقنت) كله بمعنى وأنا على (يقين) منه[٢] ويقن الشيء : (ييقن) يقيناً : ثبت وتحقق ، والشيء وبه : علمه وتحققه ، و (أيقنه) وبه علمه يقيناً ، و(اليقين) : العلم الذي لا شك معه[٣].

٢- وفي الاصطلاح : عرفه الإمام "الجرجاني" : بقوله "اليقين" : اعتقاد الشيء بأنه كذا مع اعتقاد أنه لا يمكن إلا كذا مطابقاً للواقع غير ممكن الزوال ... ، وقيل هو : طمأنينة القلب على حقيقة الشيء .... ، وقيل : تحقيق التصديق بالغيب بإزالة كل شك وريب ، وقيل : نقيض الشك : وقيل : اليقين : العلم الحاصل بعد "الشك"[٤] ، وبه يجزم "الاعتقاد".

ولهذا عرف "الاعتقاد" : بأنه الحكم الذهني القابل للتشكيك ، إذا وضع مقابلاً للعلم . ولكنه يطلق تارة اليقين ، وتارة على العلم وتارة على التصديق مطلقاً... ،

---

(١) انظر في ذلك المرجع في الفكر الفلسفي – أ.د. نوال الصراف الصباغ – ص ١١٢ بتصرف.
(٢) انظر : مختار الصحاح ، لأبي بكر عبد القادر الرازي ، ص ٧٤٣ ، والمصباح المنير ، للمقري الفيومي – ص ٦٨١.
(٣) انظر : مجمع اللغة العربية – المعجم الوجيز – ص ٦٨٦.
(٤) انظر : التعريفات ، للجرجاني – باب : الياء – فصل : القاف – ص ١١٦.

ولهذا قيل : الاعتقاد : إن كان مطابقاً للواقع فهو اعتقاد صحيح وإلا فالاعتقاد فاسد، وكأن اليقين معنى ثالث للاعتقاد[١].

والحاصل : أن مذهب التيقن في المعرفة يقابل مذهب الشك وهو الذي يقول بوجود الأشياء وجوداً حقيقياً ، وبقدرة الإنسان على معرفتها ، وقد ظهر هذا المذهب في صورتين.

– **الصورة الأولى** : وهي الصورة المشاهدة عند كل الناس من تصديقهم لما يرون ويسمعون ، وقطعهم بالأحكام على الأشياء دون نقد وتمحيص ، وكان هذا أسلوب الفلسفة القديمة في تفسير العالم والبحث في الوجود.

– **والصورة الثانية** : وتتمثل في مذهب فلسفي ، ذو مواقف محددة ، ولم تظهر هذه الصورة إلا بعد ظهور الشك ، وبلبلة أتباعه للفكر البشري ، فقام هذا المذهب يرد إلى معرفة الحقيقة اعتبارها ، ويدافع عنها[٢].

وكان هذا الدفاع – عن الحقيقة – ابتداء من الفيلسوف الحكيم "سقراط"[٣] الذي حاول إبطال موقف "السوفسطائية"[٤] في اعتمادهم على اشتراك الألفاظ[٥] ،

---

(١) انظر : المعجم الفلسفي – أ.د. عبد المنعم الحفني – ص ٢٦.

(٢) انظر : مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي "دراسة نقدية في ضوء الإسلام" – أ.د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي – ص ٦٥ – ٦٦ – ببعض التصرف.

(٣) سقراط : فيلسوف يوناني من (أثينا) ولد سنة (٤٦٩ ق.م) ، وتوفى سنة (٣٩٩ ق.م) ، دافع "سقراط" عن "العقل" باعتباره المثل الأعلى ، وفي تصوره الرفيع الواضح لما يتطلبه العقل ، وهو الذي أنزل الفلسفة من السماء إلى الأرض ، ودعا إلى معرفة النفس أولاً في مقولته الشهيرة (اعرف نفسك بنفسك) ، انظر : معجم الفلاسفة المختصر – أ.د. خلف الجراد – ص ١٢١ – ١٢٢ – باختصار.

(٤) نسبة إلى "السفسطة" ، وقد سبق التعريف بهم في هامش البحث ( ).

(٥) الألفاظ : نسبة إلى اللفظ : وهو ما يتلفظ به الإنسان أو في حكمه مهماتً كان أو مستعملاً ، انظر : التعريفات ، للجرجاني – باب : اللام – فصل الفاء – ص ٢٤٤.

وغموض المعاني ، فنزع إلى تحديد الألفاظ ، بوضعه الحدود[١] الكلية عن طريق الاستقراء[٢] ، ثم توجيه العلم إلى اكتشاف الماهيات[٣] المختفية وراء أعراضها المحسوسة.

وحينما جاء "المعلم الأول" "أرسطو طاليس" ، تصدى – أيضاً – لمناقشة حجج الشكاك وإبطالها [٤]، وإزالة سوء الفهم للمبادئ العقلية التي اضطربوا فيها : كاجتماع الضدين ، فبين : أن الضدين قد يجتمعان في شيء واحد ، في آن واحد ولكن من جهتين مختلفين.

وبهذه الجهود اثبت "أرسطو طاليس" إمكن قيام المعرفة ، واعتبر الماهية أو الوجود في ذاته موضوعها ، والحواس تدرك النسبي وتترك إدراك المطلق للعقل[٥].

وفي العصور الحديثة : جاء رينيه ديكارت[٦] ، فبدأ شاكاً كالشكاك ، ولكنه انتهى إلى المعرفة أخيراً ، وقرر أن الشك المطلق إنما ينتج من الوقوف في منتصف الطريق دون الوصول إلى آخره[١].

---

(١) الحدود : نسبة إلى الحد ، وهو في اللغة : المنع ، وفي الاصطلاح : قول يشتمل على ما به الاشتراك ، وعلى ما به الامتياز ، انظر : التعريفات للجرجاني – باب / الحاء – فصل : الدال – ص ١١٦.

(٢) الاستقراء : هو أن تتصفح جزئيات كثيرة داخلة تحت معنى كلي ، حتى إذا وجدت حكماً في تلك الجزئيات ، حكمت على ذلك الكلي به ، انظر : معيار العلم للإمام الغزالي – ص ١٦٠ ، ٣٥٠ – تحقيق أ.د. سليمان دنيا – الطبعة الثانية – دار المعارف بمصر الجديدة – ١٣٧٩ – ١٩٦٠م.

(٣) الماهيات : نسبة إلى الماهية ، وماهية الشيء هو هو وهي من حيث هي هي ، لا موجودة ولا معدومة ولا كلي ولا جزئي ولا خاص ولا عام.
والماهية : تطلق غالباً على الأمر المتعقل مثل المتعقل من الإنسان ، وهو الحيوان الناطق مع قطع النظر عن الوجود الخارجي ... وماهية الشيء حقيقته ، انظر في ذلك : التعريفات ، للجرجاني – باب الميم – فصل الألف – ص ٢٤٧ – ٢٤٨.

(٤) انظر : أسس الفلسفة – أ.د. توفيق الطويل – ص ٢٣٦ – ط (٧) – دراسة النهضة العربية – القاهرة – بدون تاريخ.

(٥) نفس المصدر السابق – ص ٣٢٠.

(٦) ديكارت : اسمه رينيه ديكارت : ولد سنة (١٥٩٦م) ، وتوفى سنة ١٦٥٠م ، وهو فيلسوف فرنسي وعالم رياضي وعالم فيزيولوجيا ، له مؤلفات عديدة من أهمها : (مقال في المنهج) ، مبادئ

ولمعرفة هذا الموضوع – أي دور المذهب الشكي في تحصيل اليقين – بصورة أوضح ، فإني أسوق مبحثين كاملين :

أحدهما : الشك المطلق أو الشك المذهبي.

وثانيهما : الشك المنهجي أو الشك المعرفي.

الفلسفة) ، (قواعد لهداية العقل) ، (تأملات في الفلسفة) وغير ذلك ، انظر : معجم الفلاسفة المختصر – أ.د. خلف الجراد – ص ٨٨ – ٨٩.

([1]) انظر : مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي – أ.د. عبد الرحمن الزنيدي – ص ٦٥ – ٦٦ – بتصرف.

المبحث الأول

الشك المطلق أو الشك المذهبي

الحاصل : أنه في القرن الخامس قبل الميلاد سيطرت على الفكر اليوناني موجه من الشك والحيرة والارتياب ، وبلبلة الفكر نتيجة للسفسطة[١] ، والجدل ، وتضارب الآراء في قضايا ومسائل الفلسفة وانتهت بهم إلى إنكار جميع الركائز الفكرية للإنسان ، وإنكار المحسوسات والبديهيات[٢].

وقد صور أحد فلاسفة ذلك العهد ، وهو الفيلسوف اليوناني "جورجياس" [٣] حالة الشك في الوجود حين قال في مقدمة كتاب وضعه لدعم مذهب الشك : لا يوجد شيء ، وإذا وجد شيء فالإنسان قاصر عن إدراكه ، وإذا فرضنا أن الإنسان أدركه ، فلن يستطيع أن يبلغه لغيره[٤].

ولكن – في الحقيقة ، وفي الواقع – أن أول مذهب فلسفي بني على الشك التام في إمكان المعرفة الإنسانية ، هو مذهب بيرون [٥] الذي يقوم : "يجب أن لا نثق

---

(١) السفطسة : قياس مركب من الوهميات يعتمد على المغالطة ، والغرض منه تغليط الغير عن قصد صحيح أو غرض فاسد ، انظر : المعجم الفلسفي – أ.د. عبد المنعم الحفني – ص ١٤٧ – وقد سبق التعريف بالسوفسطائيين في هامش البحث – ص (٦).

(٢) البديهيات : نسبة إلى "البديهي" ، وهو الذي لا يتوقف حصوله على نظر وكسب سواء احتاج إلى شيء آخر من حدس أو تجربة أو غير ذلك أو لم يحتج فيرادف الضروري ، وقد يزاد به ما لا يحتاج بعد توجه العقل إلى شيء أصلاً ، فيكون أخص من الضروري ، كتصور الحرارة والبرودة ، وكالتصديق بأن النفي والإثبات لا يجتمعان ولا يرتفعان ، انظر : التعريفات ، للجرجاني – باب : الباء – فصل الدال – ص ٦٨.

(٣) جورجياس ، سبق التعريف به ص ٦ من البحث.

(٤) انظر : مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي – أ.د. عبد الرحمن الزنيدي – ص ٦٠.

(٥) بيرون : سبق التعريف به ص ( ) من البحث.

في "الحس" ولا في العقل" ، وأن نبقي من غير رأي ، ويجب أن ننفي ونثبت معاً ، أو لا ننفي ولا نثبت[1].

والواضح : أن بيرون لم يكن يعتقد أن العقل الإنساني بوسعه أن يتغلغل إلى داخل الأشياء كما تظهر لنا ، لأن نفس الأشياء تظهر مختلفة لأفراد مختلفين ، فكيف لنا أن نعرف اليقين؟

إذاً ، فإنه ، ليس بالإمكان التأكد من شيء ، ولذلك أخذ بيرون بمبدأ تعليق الحكم ، والحكيم هو الذي يعلق حكمه فبدل أن يقول : هذا كذلك ، خير له أن يقول : يبدو لي ، أو يقول : ربما يكون هكذا ... ، كما كان ينظر إلى الشيء ، غير أنه يمتنع عن الحكم عليه ، لأن في فلسفته ، كل قضية تحتمل : الإيجاب ، والسلب بتعادل ، والحكمة : هي في العدول عن : الإيجاب والسلب.

وتعليق الحكم بمعناه الشكي : يمتد إلى العالم التطبيقي ، لأنه ليس هناك شيء قبيح أو جميل ، خطأ أو صحيح بحد ذاته. والحكيم : هو الذي يعرف أنه إن أراد ممارسة حياته العملية ، فإنه لمن غير المستطاع الوصول إلى الحقيقة المطلقة[2].

ويظهر أن بيرون لم يصل إلى الشك عن طريق البحث الفلسفي العميق في الحقيقة وإمكانها ، وإنما قال به عن طريق : أنه وسيلة للسعادة ، وذريعة لتخفيف ويلات الحياة.

يقول بيرون : إن خير طريق يسلكه الحكيم أن يسأل نفسه هذه الأسئلة الثلاثة :

أولاً : ما هي هذه الأشياء التي بين أيدينا ، وكيف تكونت ؟

ثانياً : ما علاقتنا بهذه الأشياء ؟

---

(1) انظر كتاب / مع الفيلسوف – أ.د. محمد ثابت الغندي – ص ١٤٤ – طبع – دار النهضة العربية – بيروت – لبنان – بدون تاريخ.

(2) انظر : المرجع في الفكر الفلسفي – أ.د. نوال الصراف الصايغ – ص ١١٢.

ثالثاً : ماذا يجب أن يكون موقفنا إزاءها؟

أما السؤال الأول : فالإجابة عنه بالقول : إنا لا نعرفها ، وإنما نعرف ظواهرها، أما حقيقتها الباطنية ، فنحن بها جد جاهلين ، والشيء الواحد يظهر بمظاهر مختلفة للأشخاص المختلفة ، لهذا كان من المستحيل أن نعرف أي الآراء حق.

ومن أوضح الأدلة على ذلك : أن آراء العقلاء مختلفة كاختلاف آراء العامة ، وكل وجهة نظر يمكن البرهنة على صحتها وتأييدها كنقيضها.

ورأى مهما كان واضحاً عندي ، فعكسه واضح عند غيري ومقتنع به اقتناعي ، فما عند كل إنسان رأي لا حقيقة ، وهذه هي العلاقة بيننا وبين الأشياء ، وهو الإجابة عن السؤال الثاني. أما السؤال الثالث فيجب أن يكون الوقف التام ، فنحن لا نستطيع أن نتأكد من شيء ولو كان تافهاً.

ومن ثم ، كان أتباع بيرون لا يصدرون على الأشياء أحكاماً قاطعة ، فهم لا يقولون : إن الحق كذا ، وإنما يقولون : يطهر لنا كذا وربما كان كذا ، ومن المحتمل ، ونحو ذلك[1].

وبذا أكد بيرون ، وأتباعه على ضرورة تعليق الحكم وعدم السماح لأنفسنا بأن نرتبط بأي تأكيدات ، حيث أننا لا نستطيع تصديق العقل أو الحس ، وعندئذ نحصل على طمأنينة النفس.

إذاً : فقد بحث بيرون ومعاصريه عن طمأنينة النفس ، ووجدها هو وأتباعه في تعليق الحكم ، لأن في فلسفتهم جميع الأشياء غير ثابتة وغير يقينية.

لذلك تقول الشكية بالصمت ، وتعليق الحكم لأنه بوسعنا أن نحكم على الحكم الصحيح ، عندما تكون عقولنا في توازن تام ، فالفلسفة البيرونية لا تؤكد أو تنكر ،

(1) قصة الفلسفة اليونانية – أ.د. أحمد أمين ، أ.د. زكي نجيب محمود – ص ٣٠٦ - ٣٠٧

وبهذا تحصل على الطمأنينة[١] ، وذلك من خلال الشك التام في إمكان المعرفة الإنسانية.

وقد لوحظ بأن الفلسفة الشكية كادت أن تمحى ، ولكن عادت إلى الظهور مرة أخرى على يد الفيلسوف أناسيديموس – في القرن الأول قبل الميلاد ، والقرن الأول بعده ، ونتج عن ذلك الكتب العديدة ، وكان أناسيديموس قد جمع حججاً عشرة للشك – في كتاب مقالات بيرونية – تتلخص في التالي : [٢]

١- أن الأحكام تختلف باختلاف الأفراد ومقدرتهم على الحس فما تراه عين لا تراه الأخرى ، لذلك فمن غير الممكن أن نحكم على حقيقة الأشياء.

٢- أن الأحكام تختلف باختلاف طبيعة الأفراد ومقدرتهم ، فهناك من هو أقدر على ممارسة الزراعة ، وآخر على ممارسة التجارة.

٣- أن الأحكام تختلف باختلاف الحواس فما تصوره حاسة صغيراً ، يبدو للأخرى كبيراً فمثلاً : تظهر التفاحة في العين باهتة اللون ، ولكن مذاقها حلو.

٤- أن الأحكام تختلف بالتغير المستمر في الحالة الصحية والنفسية ، فالمريض لا يشعر بالطعام ومذاقه ، كما يشعر السليم.

٥- أن الأحكام تختلف باختلاف النظم والعادات والتقاليد والقيم في المجتمعات ، فما يناسب مجتمعاً لا يناسب الآخر وما يبدو حقاً في مجتمع يبدو باطلاً في الآخر،

٦- أن الأحكام تختلف باختلاف تنظيم الأشياء ومكانها وعلاقتها بغيرها ، فاللون في ضوء الشمس يبدو مختلفاً عنه في ضوء القمر.

---

(١) المرجع في الفكر الفلسفي – أ.د. نوال الصايغ – ص ١١٣.
(٢) نفس المصدر السابق – ص ١١٣ – ١١٤.

٧- أن الأحكام تختلف بحسب بعدها وقربها ، فالحبل يبدو صغيراً أو كبيراً بحسب بعدنا عنه.

٨- أن الأحكام تختلف باختلاف النسبة التي يكون عليها المدرك ، فإذا أخذ الشيء بحدود ونسبة معينة ، أو زاد حدة ، ففي الحالة الأولى يفيد ، وفي الحالة الثانية يضر.

٩- أن الأحكام تختلف باختلاف الشيء ، فالشيء المألوف نحكم عليه حكماً مخالفاً للشيء الغير مألوف ، فالذي يتعود الزلزال لا يخافه.

١٠- يختلف الشيء حسب علاقته ، فالابن مثلاً يختلف إدراكه لأبيه عن الغريب.

- هذه جملة من الحجج التي تقدم بها الشكاك لتبرير موقفهم الإنكاري ، وهي كلها على استحالة المعرفة ، لأن طرق المعرفة من : حس وبديهيات عقلية ، لا توصلنا إلى الحكم على شيء بأنه موجود أو معدوم ، أو حقيقة ، أو يقيني. فالحس ، والبديهيات العقلية ، هما هدفان لهدم المعرفة من وجهة نظر الشكاك.

ونتيجة لهذه الحيرة والارتياب ، وبلبلة الفكر ، والجدل ، وتضارب الآراء في قضايا الفلسفة ، انتهت بهم – أي أصحاب الشك المطلق أو الحقيقي – إلى إنكار جميع الركائز الفكرية للإنسان ، وإنكار المحسوسات والبديهيات.

وعلى الجملة ، فإن ما قرره بيرون وأتباعه في الأشياء المادية ، فقد قرروه أيضاً في : الأخلاق ، وفي القانون ، وفي الأشياء المعنوية ، بمعنى : أنه لا شيء في نفسه حق ، ولا شيء في ذاته خير أو شر ، وإنما هو : خير في رأيي أو رأيك ، أو حسب القانون والعرف.

وإذا عرف العاقل ذلك ، فإنه لم يفضل شيئاً على آخر ، وكانت النتيجة الجمود التام وعدم العمل ، فإن أي عمل ، إنما هو نتيجة ذلك لغرض ، فإذا انعدم هذا التفضيل ، انعدم العمل ، وهو ما يرمي إليه بيرون ، فالعمل مؤسس على العقيدة ، والعقيدة لا تكون ما لم يكن هناك جزم بأن الحق في جانبها وهو ينكر ذلك ، ويرى بيرون أن اللذائذ والرغبات ، يجب أن تنبذ ، وأن يعيش الإنسان في هدوء تام وبعقل مطمئن ، وبنفس هادئة حررت من كل وهم وضلال ، وليس الشقاء في العالم ، إلا نتيجة عدم الوصول إلى ما يرغب فيه أو فقده إذا كان ، فإذا تحرر العاقل من هذه الرغبات ، فقد تحرر من الشقاء ، والعاقل : يستوي عنده الشيء ونقيضه ، فالصحة أو المرض ، والموت أو الحياة ، والغنى أو الفقر ، سواء عنده متى عدم الرغبة ، وإذا كان مضطراً في هذا الوجود إلى العمل كان مضطراً أن يخضع للعرف والقانون، لا من اعتقاد بأنهما : حق أو مقياس للخير[١].

والواقع أن : الشكاك قد أسرفوا على أنفسهم ، لأنهم بهذا الشك قد اعترفوا بوجود نوع من الأفكار يمكن تسميته بالمعرفة ، حتى وإن كان في الجانب الشكي نفسه ، بدليل : أن ديكارت كان يقول : إن الشك هو الذي قادني للحقيقة[٢] ، كما أنه ظل يقول : إن الشك موصل لليقين ، وفهمت عبارته على أنها تتعلق بالشك المنهجي لا المنهج الشكي ، لأن الشك المنهجي : يوصل صاحبه إلى الحقيقة ، أما المنهج الشكي الذي قال به الشكاك السوفسطائيون فإنهم يسيرون عليه حتى يحاولوا هدم الحقيقة ، وقد عبر عنه مونتاني[٣] الذي كان يقول : سأظل أشك حتى في أنني أشم ، ولن أترك الأرض الرخوة ، وأضع قدمي على الصلصال[٤].

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية – أ.د. أحمد أمين ، أ.د. زكي نجيب محمود – ص ٣٠٧ – ٣٠٨.

(٢) نقلاً عن : محاضرات في الفلسفة العامة – أ.د. محمد حسيني موسى الغزالي – ص ٢٩٠ – ط سنة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥م – غزالة الخيس – الزقازيق – شرقية.

(٣) مونتاني :

(٤) نفس المصدر السابق – ص ٢٩٠ – ٢٩١.

ولا شك أن ما يدركه الناس من معارف ، قامت عليها حضارات وانتصب فوقها نهضات ، يؤكد انفلات الشكاك عن القواعد العامة وأنهم كانوا سعاة لتدمير الفكر الإنساني وأصحاب نزعة عدوانية تدميرية بغض النظر عن الأهداف المعلنة من قبلهم[١].

إن هذا النوع من الشك العاصف ، قد ابتليت الإنسانية به ، على يد من سمو بالسوفسطائين ، قم بمن تبعهم وسار على منهجهم في تاريخ الفكر الإنساني.

لقد زلزل السوفسطائيون – ومن تبعهم على هذا المنوال – أسس المعرفة وبناءها من خلال هذا الشك الإلحادي الإنكاري ، الذي ينكر العلاقة بين الإنسان العارف وبين الوجود المعروف . ولم يسلم من شكه حتى وجود الله سبحانه وتعالى ، وذلك كما يقول بروتاغوراس[٢] : فأما الآلهة فلا أستطيع أن أجزم بوجودهم أو عدم وجودهم ، ولا أن أتصور أشكالهم ، وهناك من العوائق الكثيرة منها : غموض الموضوع وقصر حياة الإنسان[٣].

كما أنكر التفريق بين ما يدرك بالحس وما يدرك بالعقل ، وأنكر الفرق بين الوجود الذهني والوجود الخارجي ، فما يظهر للشخص أنه حقيقة يكون هو الحقيقة له ، فإذا اختلفنا في رؤية شيء ، فما أراع أنا حق بالنسبة لي ، وما تراه أنت حق بالنسبة لك ، وأنه ليس هناك خطأ ، بل يستحيل وجود الخطأ ، فكل ما تراه صواب عندك ، بل لفظنا : الخطأ والصواب ، لا معنى لهما ، فليس هناك ما يسمى حقاً في ذاته أو في الواقع ونحو ذلك[٤].

---

(١) نفسه ص ٢٩١.
(٢) بروتاغوراس
(٣) نظرية المعرفة بين القرآن والسنة – أ.د. راجح عبد الحميد الكردي – ص ٨٣.
(٤) نفس المصدر السابق – ص ٨٣ – ٨٤.

وهذا النوع من الشك يطلق عليه : بالشك المطلق ، أو الشك المذهبي ، الذي يجعل المعرفة اليقينية الشاملة بالكائنات الحقيقية أمراً لا سبيل إلى تحصيله ، أو الوصول إليه ، ويهجم على الوسيلة التي يسلمها الإنسان للمعرفة من : حس ، وعقل ، ومن ثم يقطع صلة هذا الإنسان المعرفية بالواقع ، ويجعل من الفكر والوجود شيئاً واحداً ، ذلك أن الفكر يفترض وجود موضوعه.

والمرء – كما يرى جورجياس السوفسطائي – : لا يستطيع أن يفكر في شيء من الأشياء دون أن يفكر في هذا الشيء على أنه موجود ، ونتيجة لذلك فعدم الوجود لعدم كونه موضوعاً للتفكير ليس شيئاً بالإضافة إلينا[١] ، أو إنه لا شيء موجود وأنه وإن وجد ، فليس ممكن المعرفة ، وأنه حتى لو فرضنا جدلاً أن ثمة موجوداً ، وأن شخصاً ما ، أتيح له أن يعرفه ، فيستحيل عليه أن ينقله إلى الآخرين. وهذا في الواقع ، شك إلحادي ، إنكاري ، ينكر العلاقة بين الإنسان العارف وبين الوجود المعروف[٢].

(١) الفلسفة اليونانية – تأليف أ. شارل فرنر – ترجمة أ. تيسير شيخ الأرض ص ٤٠ ، ط١ ، دار الأنوار – بيروت سنة ١٩٦٨م.

(٢) نقلاً عن : نظرية المعرفة بين القرآن والسنة أ.د. راجح عبد الحميد الكردي ص ٨٣.

المبحث الثاني

الشك المنهجي أو الشك المعرفي

في الواقع : أن هذا النوع من الشك – وهو الشك المنهجي – يشتبه مع الشك المطلق ، لأنه يبدأ من نفس البداية ويستند إلى نفس الحجج في نقده للمعرفة الحسية والعقلية ولكن هذا النوع من الشك – أي المنهجي – في إمكان الوصول إلى العلم من حيث هو ، أي في حقيقته ، في حين أن الشك المطلق : هو شك في مبدأ الوصول أصلاً إلى حقيقة أو إلى الإيمان بوجود شيء ومعرفته.

ثم إن الشكاك شكاً منهجياً ، هو مؤمن بوجود الحقيقة ولكنه لا يسلم بها تسليم الاعتقاديين من : عقليين وتجريبين ، وإنما يتوجه شكه على أصول ومصادر المعرفة عند كل منهما ... ، أي لا بد من مناقشة فكرة العقل عند العقليين ومدى قدرته على تحصيل المعرفة ، ومناقشة فرض التجريبيين القائل بأن المعرفة مستحيلة خارج حدود التجربة. فالشك هنا إذاً : منهج ، وطريقة ، إنه حركة تنظيم يخلص النفس من أعباء أفكار لا تأنس إليها ولا ترتاح لها ليقيم على أنقاضها : أفكار ترتاح لها وتأنس إليها ، وهو أحياناً : حركة فحص وعلاج يتبين ما في الرأي من ضعف ليصلحه ، وما في الفكرة من نقص ليكملها. وهو مدخل من مداخل اليقين ، بمعنى أنه مرحلة قد يمر بها الإنسان بين إيمانين : إيمان تسليمي سابق للشك ، وإيمان ممحص لاحق لمنهج الشك[1].

فالشك هنا : وسيلة لا غاية وطريق يوصل إلى اليقين ، وأنه لامع من تحليل المبادئ الأولى للعلوم ، وأولويات المعرفة للتمحيص والاطمئنان ، ولكن هذا المنهج لا يمكن أن يكون منهج عامة الناس ، كما يقر أصحابه بذلك ، بأننا أمام تجربتين لهذا النمط من الشك : الأولى : تجربة حجة الإسلام الغزالي ، في الفكر الإسلامي

(1) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة – أ.د. راجح عبد الحميد الكردي – ص ١٠٤ – ١٠٥.

والثانية : تجربة رينيه ديكارت في الفكر الغربي الحديث ، وهاتان التجربتان ، سوف نتعرف عليهما بشيء من الإيضاح ، ولكن بعد أن نتحدث أولاً عن نزعة الشك التي اكتنفت الأكاديمية الجديدة على يد مؤسسها أرقليساوس ، ثم كارنيادس ، وذلك سيراً على المنهج الذي سلكته في هذا البحث ، والتزاماً بالترتيب الزمني والتاريخي.

أولاً : الأكاديمية الجديدة : ونزعة الشك :

الأكاديمية الجديدة : مدرسة فلسفية غريبة ، تتبنى فكرة الاحتمال ، وتحكم باستحالة اليقين. ومن أبرز رجالها : أرقليساوس ، وكارنيادس ، وهي تقابل الأكاديمية القديمة ، مدرسة أفلاطون[١].

لقد تحولت الأكاديمية الجديدة إلى نزعة الشك ، حيث بدأت مع رأيسها آرسزيلاس ، الذي يعد منشيء الأكاديمية الوسطى ، ثم أصبح هذا الاتجاه واضحاً قوياً على يد كارنيادس ، وتسمى الأكاديمية في عهده ، سنة (٢١٣ – ١٢٩ ق.م) بالأكاديمية الثالثة[٢].

وقد نحت الأكاديمية الجديدة ، منحى السوفسطائية ، فأنكرت وجود مقياس ثابت للحقائق ، حينما أساءت الظن بالعقل والحس ورأت استحالة المعرفة اليقينية الصادقة ، ولكنها لم توغل في الشك إيغال السوفسطائية ، بل قالت بمبدأ الترجيح والاحتمال ، الذي يقوم على النظر فيما يقال في الموضوع تأييداً أو اعتراضاً ، ثم يؤثر الترجيح . ولا يتجاوزه إلى اليقين[٣].

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية أ.د. أحمد أمين ، أ.د زكي نجيب محمود ص ٣٠٨ ، والمرجع في الفكر الفلسفي أ.د. نوال الصراف الصايغ ص ١١٤ بتصرف.

(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٤.

(٣) أسس الفلسفة – أ.د. توفيق الطويل – ص ٣٠٨ ، ط ٧ ، دار النهضة العربية ، والمرجع في الفكر الفلسفي ، أ.د. نوال الصراف الصايغ – ص ١١٤ بتصرف.

إن أظهر ما يميز الأكاديمية الجديدة ، هو معرضتها الشديدة للرواقيين ، حيث اعتقدوا أن الرواقيين سريعوا التصديق بالحقائق من غير أن تدعم بالبرهان . وقد رد عليهم آرسيزيلاس في نظريتهم في أساس المعرفة، وذهب إلى أنه لا أساس للمعرفة، وليس هناك مقياس نقيس به الحقيقة ، لا الحواس ، ولا العقل ، ومن مأثور قوله : (لست أدري ، ولست أدري أنني لا أدري) [١].

ولكن لم تبالغ الأكاديمية الجديدة في الشك ، كما بالغ بيرون ، فقد ذهبوا إلى أن الإنسان يجب أن يعمل ، وإذا لم يكن في الإمكان معرفة الحق ، فاحتمال الحق وظنه كافيان في الهداية إلى العمل[٢].

ويعد كارنياس أشهر الأكاديمية الجديدة الشكاكة ، **ومما يمثل رأيه قوله :**

١- لا يمكن البرهنة على شيء، لأن النتيجة يجب أن يبرهن عليها بالمقدمات، والمقدمات تحتاج إلى برهان ، وهكذا فيؤدي ذلك إلى التسلسل[٣].

٢- لا يمكن أن نعرف إن كان رأينا في شيء حقاً أو لا؟ لأننا لا نستطيع المقارنة بين الشيء ورأينا ، لأن ذلك يتطلب أن نخرج من عقلنا ، فنحن لا نعرف عن الشيء إلا رأينا فيه، فكان من المستحيل المقارنة بين الشيء وصورته في ذهننا، لأننا لا ندرك إلى الصورة[٤].

وعلى الجملة فإن الأكاديمية الجديدة قد تميزت بمنهجها الفلسفي الشكي ومن أهم فلاسفتها كارنيادس الذي أكد أن المعرفة اليقينية مستحيلة ، لأنه ليس هناك مقياس لها.

---

(١) قصة الفلسفة اليونانية أ.د. أحمد أمين ، أ.د. زكي نجيب محمود ص ٣٠٩.
(٢) نفس المصدر السابق ص ٣٠٩.
(٣) نفس المصدر السابق ص ٣٠٩.
(٤) نفس المصدر السابق ص ٣٠٩.

وكان بالأكاديمية قبله أرسزيلاس ، مؤسسها والذي عرف عنه أنه لم يكن متأكداً من شيء ، وذهب إلى أبعد من سقراط في شك المعرفة واعتقد أنه لا شيء في المحسوسات أو المرئيات يضمن لنا صدق الأشياء ، فكيف باستطاعتنا التأكد ؟ ، كما ذهب أرسزيلاس بالقول : (إننا لا نعرف حتى أننا لا نعرف) وفي عهده ركزت الأكاديمية الجديدة على المعرفة بمفهومها الشكي السقراطي ، وهجرت التعاليم الميتافيزيقية الأفلاطونية(١).

وبالمقارنة بين الشك في المدرسة البيرونية والنزعة الشكة في الأكاديمية الجديدة، فإنه يتضح أن المدرسة البيرونية تمثل النظرة التشاؤمية السلبية للمعرفة الإنسانية ، أما الأكاديمية الجديدة ، فإنها كانت أكثر ثقافة وتفاؤلاً ، واستمر تأثير الشكية في الفلسفة اليونانية القديمة حتى القرن الثالث بعد الميلاد ، وقد ظهر هذا التأثير واضحاً في فلسفة القديس أوغسطين ، كما عادت لتظهر في فلسفة كل من : رينيه ديكارت وديفيد هيوم الحسية في العصور الحديثة.

– إن الشكية : لا تؤيد أي تفكير ، بل تشك في معرفته اليقينية ، لذلك فليس لها انتماء أو تفضيل لأحدهما ، فالمعرفة في فلسفتها تبقى احتمالاً لا حقيقة ، وهذا يفسر تأثيرها على نوعي التفكير الفلسفي في العصور الحديثة(٢).

ثانياً : الشك المنهجي عند حجة الإسلام "الغزالي" :

حقيقة ، أن الشك الذي أراده الغزالي هو شك منهجي ، لأنه مجرد وسيلة إلى الحقيقة ، والوصول إلى الحقيقة كما يرى الغزالي لا يكون ممكناً إلا بالنظر والتفكير والتأمل بالبحث والدراسة. وهذه الأمور لا بد وأن يتقدمها الشك لأن الشكوك هي

(١) المرجع في الفكر الفلسفي – نحو فلسفة توازن بين التفكير الميتافيزيقي والتفكير العلمي – أ.د. نوال الصراف الصايغ – ض ١١٤.
(٢) نفس المصدر السابق ص ١١٥.

الموصلة إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ومن لم ينظر لم يبصر ومن لم يبصر بقى في العمى والضلال[١].

والواضح ، أن حجة الإسلام "الغزالي" بهذا الغرض ، يرى أن الشك المنهجي – والذي هو مجرد وسيلة إلى الحقيقية – يكون مؤقتاً وإرادياً ، لأن الباحث أفرض على نفسه الشك بإرادته[٢] ، ولهذا يكون الشك أمراً ضرورياً في أثناء التطور العقلي ، لأن الشك فقط هو الذي يجعل الوصول إلى الحقيقة ممكناً[٣] ، والبحث ناجحاً. فشك العالم منهجي بحيث أنه وسيلة مفيدة للوصول إلى اليقين والطريقة المثلى للوصول إليه تكون في الشك[٤].

وهذا الشك المنهجي في حقيقته . هو اعتراف بالحقيقة ، ولذلك رأى الغزالي أن الباحث لا بد له من الإيمان بوجود الحقيقة، لأن بالإيمان به تكون الإرادة والرغبة والقوة ، وبها يقوم الباحث بالعمل ، وبه يكون الوصول ممكناً.

لذلك قال حجة الإسلام "الغزالي" : المانع من الوصول : عدم السلوك والمانع من السلوك : عدم الإرادة ، والمانع من الإرادة عدم الإيمان[٥] ، فبإيمان أبو حامد الغزالي بوجود الحقيقة ، قام بالبحث عنها واجتهد حتى وصل إليها[٦].

وجملة القول ، فإن أبا حماد الغزالي ، والذي يمثل دائرة معارف عصره ، هو شخصية باحثة ناقدة ، تؤمن بإمكان الحقيقة ، ولكن على أساس من الشك

---

(١) ميزان العمل ، لأبي حامد الغزالي – ص ٣٧- ط. دار الكتاب العربي – بيروت – سنة ١٣٩٩ هـ ، ومصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي – أ.د. عبد الرحمن الزنيدي ص ٧٠ بتصرف.

(٢) الفلسفة الحديثة – أ.د. نازلي إسماعيل حسين – ص ١١٦ – مكتبة الحرية الحديثة – القاهرة ١٩٧٩م.

(٣) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت ص ٥٠.

(٤) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت – أ.د. السيد بن عقيل ص ١٢٩.

(٥) إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي ج٣ ، ص ٧٢.

(٦) المنقذ من الضلال ، لأبي حامد الغزالي – ص ٧٥ ، مكتبة الجندي – القاهرة – سنة ١٩٧٢.

والتمحيص المنهجي ، وهذا الشك الذي اعتنقه الغزالي منهجاً للبحث عن الحقيقة لم يثنه عن الاقتناع التام بالحقيقة ، وعن الاعتراف بإمكان معرفتها. ولكن الذي كان يشغله هو تمحيص هذه الأداة العارفة للحقيقة واليقين في هذه الأداة ، ومن ثم تجاوز قنطرة الإيمان بالحق إلى الإيقان به يقيناً لا يقارنه إمكان الغلط والوهم فيه[١].

بالإضافة إلى هذا ، فقد وضع حجة الإسلام "الغزالي" بجانب الشك المنهجي خطوات للبحث عن الحقيقة ، وتتمثل في [٢] : التحرر من القيود [٣] ، ثم القواعد المنهجية المتمثلة في : قاعدة البداهة واليقين ، وقاعدة : عدم التسرع في اتخاذ الأحكام ، وقاعدة عدم التناقض التي تدعو إلى معرفة سبب وقوع التناقض ، وقاعدة : الثقة الكاملة في الحكم وتيقنه[٤] ، ثم الخطوة الرابعة : المتمثلة في : الوسائل الثلاث : الحواس ، والعقل والقلب ، وأن هذه الوسائل لها حدود تقف عندها ولا تتجاوزها. فكل واحدة منها مجال خاص بها والوصول إلى اليقين بها ممكن ، ثم الخطوة الخامسة ، المتمثلة في التأمل ، والذي هو منهج لحل المشكلات والوصول إلى الحقيقة استناداً على طول التأمل وإمعان النظر.

وبذا . وذاك ، يصل الإنسان إلى اليقين التام : الذي هو عبارة عن معرفة مخصوصة ومتعلقة المعلومات التي وردت بها الشرائع[٥].

---

(١) المصدر السابق ص ٢٦.

(٢) انظر في ذلك : المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت ، للوصول إلى الحقيقة – أ.د. السيد عقيل ص ١٢٩ – ١٣٢ باختصار.

(٣) نفس المصر ص ١٢٩.

(٤) نفس المصدر ص ١٣٢.

(٥) إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي – ج١ ، ص ٧٤ – دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة – تقديم – أ.د. بدوي طبانة – بدون تاريخ.

واليقين الذي تحدث عنه الغزالي بصفة خاصة هو : اليقين الذوقي أو الصوفي[١] ، والذي بدأ باليقين العقلي أو الفكري الذي قد رسخ في القلب ، لأن الفكر عنده ، هو إحضار معرفتين في القلب ليستثمر منهما معرفة ثالثة .... ، وإذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب ، وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح ، فالعمل تابع الحال ، والحال تابع العلم ، والعلم تابع الفكر ، فالفكر إذاً : هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها[٢].

وعلى هذا التصوير يبدو واضحاً أن اليقين الصوفي ، يشمل بلا شك اليقين العقلي. بذلك ، يكون اليقين الصوفي في مذهب الغزالي ، أتم وأكمل من اليقين العقلي. مما يترتب عليه أن يكون الإيمان الذوقي في أعلى مراتب الإيمان عند الغزالي. لأنه إيمان العارفين وهو المشاهد بنور اليقين[٣].

ثالثاً : الشك المنهجي عند رينيه ديكارت :

في الواقع أن رينيه ديكارت قد استخدم الشك كوسيلة منهجية من أجل الوصول إلى الحقيقة التي لا يمكن أن يتطرق الشك إليها.

وهذا من أوضحه بقوله : "ولما فكرت خاصة فيما يمكن أن يجعل الشيء عرضة الشك ويحملنا على الوقوع في الخطأ ، نزعت من عقلي جميع الأخطاء التي أمكنها التسرب إليه من قبل. وما كنت في ذلك مقلداً الريبيين الذي لا يشكون إلا للشك ويتظاهرون دائماً بالتردد ، لأن غرضه كان كله على عكس ذلك لا يرمي إلا

---

(١) معيار العلم – أبو حامد الغزالي – ص ١٨٧.

(٢) المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت للوصول إلى الحقيقة – أ.د. السيد محمد عقيل بن علي المهدي ص ١٤ بتصرف ، دار الحديث ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٩م.

(٣) انظر في ذلك : ديكارت ، أ.د. عثمان أمين ص ٢٩ ، نقلاً عن نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة – أ.د. راجح الكردي – ص ١١٠ بتصرف.

إلى الظفر باليقين وإلى الإعراض عن الأرض المتحركة ، والرمل في سبيل العثور على الصخر والصلصال[١].

ولذا ، وضع ديكارت مبدأين البحث عن الحقيقة : الأول : إنه للفحص عن الحقيقة يحتاج الإنسان مرة في حياته إلى أن يضع الأشياء جميعاً في موضع الشك بقدر ما في الإمكان ، والثاني : أن من المنافع أيضاً أن نعد جميع الأشياء التي يمكن الشك فيها غير صحيحة[٢].

ويذهب أ.د. عثمان أمين ، إلى أن شك ديكارت كان شكاً منهجياً وليس مطلقاً ، وذلك لسببين [٣] : الأول : أن الفيلسوف يقصد إلى تبرير اليقين بعد المضي في الشك إلى أقصى حدوده ، والثاني : أن يستثنى بالفعل العقائد الدينية والقواعد الأخلاقية والتقاليد الاجتماعية. وشك ديكارت كان شكاً منهجياً ، لا شكاً مطلقاً ، أي شك العقل لا شك العقيدة ولم يعد هذا الشك أن يكون سوى محاولة منظمة للوصول إلى اليقين العقلي ، وليس تجربة من تجارب الوجود. ومثل ذلك الشك أن يكون نشاطاً روحياً مرتباً ، وقوة دافعة : للفكر من أن يكون ميلاً إلى الانحدار في هوة الشك المطلق والتحلل من ربقة الدين[٤].

هذا ويتابع أ.د. عثمان أمين حديثه في الصدد ، قائلاً : والحقيقة أن ديكارت قد بين مراده بنفسه ونفى عن نفسه تهمة الشك المطلق ، فهو يقول في رده على من اتهمه بذلك بأنه ما دعاه إلى هذا الشك إلى إعداد أذهان القراء للنظر في الأمور

---

(١) مقالة الطريقة – رينيه ديكارت – ص ٨٦.

(٢) مبادئ الفلسفة – رينيه ديكارت – ص ٥٣.

(٣) حيث اتهم أ.د. يوسف كرم ديكارت بالشك المطلق ذلك لأنه شك في كل شيء حتى في العقل ذاته ، ولكن هذا يثبت مدى الشك المنهجي الذي استخدمه ديكارت في الوصول إلى الحقيقة واليقين العقلي.

(٤) ديكارت – أ.د. عثمان أمين – ص ١٢١ – ١٢٢ – ط ٦ مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – سنة ١٩٦٩م.

الذهنية ولتمييزها من الأشياء البدنية [١] ، وهو شك مؤقت ، وليس غاية في ذاته مثل شك الارتيابيين[٢].

وبالإضافة إلى هذا ، فقد وضع دينيه ديكارت – بجانب الشك المنهجي – خطوات للبحث عن الحقيقة وتتمثل في الخطوات التالية : التحرر من القيود والروابط ووضع القواعد المنهجية ومبدأ اليقين ، وهذه الخطوة تتضمن القواعد الآتية :

١- قاعدة البداهة واليقين. ٢- قاعدة التحليل وتقسيم المشكلات على أفضل وجه. ٣- قاعدة الترتيب والتركيب. ٤- قاعدة الإحصاء ، وهي عملية استقراء ، والخطوة الرابعة : تحديد الوسيلة ، فالوسيلة إلى الحقيقة عند ديكارت ، هي : العقل بالبداهة ، أي بالحدس العقلي ، أو ما ينور العقل الطبيعي ، حيث أن العقل جبر على الرؤية المباشرة للحقيقة.

وهنا نجد رينيه ديكارت قد استخدم في اتجاهه العقلي وسيلتين :

الأولى : الحدس ، وهو : الرؤية العقلية المباشرة التي تتم بواسطة نور العقلي الطبيعي.

والثانية : الاستنباط : وهو عملية فكرية مستمرة تنتقل من حقيقة إلى أخرى ويعتمد الاستنباط على الحدس ، ولكنه أقل منه ثباتاً لأنه يحتاج إلى زمان... والاستنباط إنما هو هو سلسلة من الحدوس المتتابعة.

وبما أن رينيه ديكارت كان من الباحثين عن الحقيقة واليقين ، فإنه كان يشك وأن شكه ليس للشك ، ولكن للظفر باليقين ، واليقين الذي كان ديكارت ينشده هو اليقين العقلي[١].

---

(١) حيث أراد أن يرتفع شكه هذا عن مرتبة المادة وعلائق الحواس.

(٢) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة أ.د. راجح عبد الحميد الكردي – ص ١٢٠ – ١٢٢.

والحقيقة أن رينيه ديكارت وهو يرجع اليقين إلى معرفة ذاته يجعل من معرفته لذاته ، معرفته لله سبحانه وتعالى التي هي أول التصورات وأهمها ، والتي بغيرها يستحيل معرفة أي شيء معرفة كاملة[٢].

وذلك لأن المعرفة التي غرسها الله في الإنسان عند خلقه ، هي الضامنة لوضوح أفكاره وتمييزها. لأن الله صادق لا يكذب ولا يخدع ويحول دون أن يسلط روح خبيث يضل الإنسان في أهم قضية في حياته ، وهي إمكان معرفته. ولذلك فإن المعرفة تتأسس في إمكانها ويقينها على معرفة الإنسان لذاته ومعرفته لله. فمن عرف ذاته ، عرف الله كسبب سابق ، وخالق لذاته ، وكسبب أعلى ضامن لصدق معرفته[٣].

يقول ديكارت موضحاً ذلك ومؤكده الحق أنه لا ينبغي أن نعجب من أن الله غرس في هذه الفكرة لكي تكون علامة مطبوعة على صنعته ، وليس من الضروري كذلك أن تكون هذه العلامة شيئاً مختلفاً عن هذه الصناعة نفسها ، ولكن مجرد اعتبار أن الله خلقني يرجح عندي الاعتقاد بأنه قد جعلني من بعض الوجوه على صورته أو على مثاله[٤].

ثم يتحدث – ديكارت – أيضاً ، موضحاً أن حل قضية إمكان المعرفة ويقينتها بهذا النور الفطري الذي أودعه الله في الفطرة بمعرفة الإنسان لذاته ومعرفته لله فطرياً ، حيث يقول : وإذن فقد وضح لي كل الوضوح أن يقيني كل علم وحقيقته ،

---

(١) ديكارت – مقالة الطريقة – ص ٨٢ – أ.د. جميل صليب – نقلاً عن المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت وطريق الوصول إلى الحقيقة – أ.د. السيد بن عقيل ص ١٩٦ – ٢٠١ باختصار.

(٢) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت – أ.د. محمود حمدي زقزوق ص ١٢١.

(٣) المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت – أ.د. محمود حمدي زقزوق – ص ٢١ – دار المعارف ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٣م.

(٤) تأملات في مبادء الفلسفة – رينيه ديكارت – د. عثمان أمين ص ١٦٣.

إنما يعتمدان على معرفتنا للإله الحق ، بحيث يصح لي أن أقول : إني قبل أن أعرف الله ما كان بوسعي أن أعرف شيئاً أخر معرفة كاملة ، والآن وقد عرفته سبحانه ، وقد تيسر لي السبيل إلى اكتساب معرفة كاملة للأشياء كثيرة[١].

وعلى ذلك : فالشك المنهجي ، إنما هو رد حاسم على الشك المطلق من أجل تأسيس المعرفة على أساس يقيني من الفطرة التي أكرمها الله بالتأسيس المعرفي والذي على ضوئه تسير في الحياة واثقة بضروریاتها وأدواتها في المعرفة[٢].

– وتأسيساً على هذا ، وذاك : فقد اتضح لنا وضوحاً جلياً ، أن الشك الذي سلكه كلاً من حجة الإسلام الغزالي ، وأبي الفلسفة الحديثة رينيه ديكارت : هو الشك المنهجي ، الذي يبدأ صاحبه شاكاً وينتهي إلى اليقين[٣] ، فهو – أي الشك المنهجي – وسيلة يهدف منها الوصول إلى المعرفة الحقيقة الصادقة. ويتحقق هذا الشك المنهجي : بقيام الباحث – كما يقول أ.د. توفيق الطويل – بتطهير عقله من كل ما يحويه من مغالطات ، وأضاليل ليتمكن من البدء بدراسة موضوعه ، وكأنه لا يعلم عنه شيئاً ، فلا يتأثر بالأخطاء المألوفة ، أو المغالطات التي يتلقاها من غيره ، أو يقرؤها في كتب الباحثين .. إنه نتيجة عزم من الباحث أن يشك بنظام في أي فكرة يمكن أن تكون مثاراً للشك[٤] ، هذا بالنسبة للشك المنهجي.

أما بالنسبة للشك المطلق : فإنه – ليس على سبيل الاعتقاد الجازم – لم يعد له وجود في العصر الحاضر بتلك الصورة المذهبية الساذجة ، وإن وجد أفراد من الشكاك قل أن يحلوا منهم عصر. ولعل من أشهرهم : الفيلسوف الإنجليزي (مونتاني

---

(١) نفس المصدر السابق – ص ١٢١ – ١٢٢.
(٢) نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة – أ.د. راجح عبد الحميد الكردي – ص ١٢٥ – ١٢٦ باختصار.
(٣) أسس الفلسفة أ.د. توفيق الطويل ص ٣١٤.
(٤) نفس المصدر السابق ص ٣١٤ .

– ت ١٥٥٣م) ، الذي ترك البحث في العالم الخارجي لأنه عالم الظن ، وراح يلتمس اليقين في نفسه ، فانتهى من ذلك إلى : الشك والفراغ والعدم والموت ، وذلك كما يقول المفكر كواريه[١].

وأما الشك ذاته : فلم ينته ، لكنه تحول من موقف مستمر يؤدي إلى تعليق الحكم تعليقاً نهائياً ، أو إنكار قاطع لأي إدراك للأشياء حقائقها ، وأعراضها ، ولكل مصادر المعرفة ، إلى شك في بعض مصادر المعرفة دون بعضها الآخر ، كشك العقليين في الحس والحسيين في العقل ، أو شك عابر وقتي يمثل مرحلة في حياة المفكر ، يفضي منه إلى المعرفة ، وهو الشك المنهجي ، الذي عرفناه وتحققنا منه ووفقنا على غايته ومنتهاه.

والواقع أن هذا الشك المنهجي ليس وليد العصور الحديثة أو الوسيطة ، بل قد أوصى به المعلم الأول "أرسطو طاليس" – في العصور القديمة – ، وحث بمزاولته عند البدء بدراسة أي موضوع علمي ، حيث يوجد – كما يقول – : علاقة ضرورية بين الشك والمعرفة الصحيحة ، لأن المعرفة التي تعقب الشك تكون أدنى إلى الصواب[٢].

فالشك المنهجي إذاً : تجربة عاشها أناس واقعاً حياً ، ومن أشهرهم : القديس أوغسطين ، وأبو حامد الغزالي ، ورينيه ديكارت ، وهيجل ، وقد دعا بعضهم إلى ممارستها لكل طالب بالحقيقة ، يقول حجة الإسلام الغزالي : إذا الشكوك هي

---

(١) نفسه ص ٣١١ بتصرف.

(٢) المصدر السابق – ص ٣١٦ ، وتجدر الإشارة هنا : إلى أن أرسطوطاليس تصدى لمناقشة حجج الشكاك وإبطالها ، وإزالة سوء الفهم للمبادئ العقلية التي اضطروا فيها ، كاجتماع الضدين ، فبين : أن الضدين قد يجتمعان في شيء واحد ، في آن واحد ، ولكن من جهتين مختلفتين. وبهذه الجهود أثبت المعلم الأول – أرسطوطاليس - : لمكان قيام المعرفة ، واعتبر الماهية أو الوجود في ذاته موضوعها والحواس تدرك النسبي ونترك إدراك المطلق للعقل ، انظر في ذلك : أسس الفلسفة – أ.د. توفيق الطويل – ص ٣٢٠.

الموصلة إلى الحق ، فمن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والضلال[١].

ويقول رينيه ديكارت ، الذي يرى أنه لكي نقرر شيئاً محققاً في العلوم ، فإنه لا بد لنا : (أن نطرح كل ما في داخل عقلنا من معارف ، ونشك في جميع طرق العلم وأساليبه ، مثلنا في ذلك مثل البناء الذي يرفع الأنقاض ، ويحفر في الأرض حتى يصل إلى الصخر الذي يقيم عليه بناءه ، والأساس الذي نريد الوصول إليه هو : العقل ، مجرداً خالصاً[٢].

(١) انظر : تاريخ الفلسفة الحديثة – أ. يوسف كرم – ص ١٦٦ ، والواضح هنا : أن ديكارت بدأ شاكاً – كالشكاك ولكنه انتهى إلى المعرفة أخيراً ، وقرر أن الشك المطلق إنما ينتج من الوقوف في منتصف الطريق دون الوصول إلى آخره.

(٢) تاريخ الفلسفة الحديثة – أ. يوسف كرم – ص ٦٦ – ط. دار القلم – بيروت – بدون تاريخ.

فهرس المراجع

- القرآن الكريم.

- السنة النبوية المشرفة

- إحياء علوم الدين ، لأبي حامد الغزالي– دار إحياء الكتب العربية ، عيسى البابي الحلبي وشركاه ، القاهرة – تقديم – أ.د. بدوي طبانة – بدون تاريخ.

- أسس الفلسفة – أ.د. توفيق الطويل – دراسة النهضة العربية – القاهرة – بدون تاريخ.

- التعريفات ، للسيد الشريف الجرجاني – تحقيق وتعليق أ.د/ عبد الرحمن عميرة – باب الشين – فصل : الكاف– الطبعة الأولى – سنة (١٤٠٧ هـ – ١٩٨٧م)

- الفلسفة الحديثة – أ.د. نازلي إسماعيل حسين –مكتبة الحرية الحديثة – القاهرة ١٩٧٩م.

- الفلسفة اليونانية – تأليف أ. شارل فرنر – ترجمة أ. تيسير شيخ الأرض ، ط١ ، دار الأنوار – بيروت سنة ١٩٦٨م.

- المرجع في الفكر الفلسفي نحو فلسفة توازن بين التفكير الميتافيزيقي والتفكير العلمي – أ.د. نوال الصراف الصايغ– ملتزم الطبع والنشر دار الفكر العربي – أوتاوا – كندا – سبتمبر – سنة (١٩٨٢م)

- المعجم الفلسفي – أ.د. عبد المنعم الحفني– الدار الشرقية – الطبعة الأولى – سنة (١٤١٠ هـ – ١٩٩٠م).

- الملل والنحل ، الشهرستاني–دار ابن حزم – ط (١) سنة (١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م).

– المنقذ من الضلال ، لأبي حامد الغزالي ، مكتبة الجندي – القاهرة – سنة ١٩٧٢.

– المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت – أ.د. السيد بن عقيل.

– المنهج الفلسفي بين الغزالي وديكارت – أ.د. محمود حمدي زقزوق – دار المعارف ١٣٩٢ هـ ، ١٩٧٣م.

– المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت للوصول إلى الحقيقة – أ.د. السيد محمد عقيل بن علي المهدي ، دار الحديث ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٩م.

– تأملات في مبادء الفلسفة – رينيه ديكارت – د. عثمان أمين.

– ديكارت – أ.د. عثمان أمين– ط ٦ مكتبة الأنجلو المصرية – القاهرة – سنة ١٩٦٩م.

– ديكارت – مقالة الطريقة– أ.د. جميل صليب – نقلاً عن المنهج الفلسفي عند الغزالي وديكارت وطريق الوصول إلى الحقيقة – أ.د. السيد بن عقيل.

– ديكارت ، أ.د. عثمان أمين ، نقلاً عن نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة – أ.د. راجح الكردي.

– قصة الفلسفة اليونانية – أ.د. أحمد أمين ، أ.د. زكي نجيب محمود– مطبعة دار الكتب المصرية – سنة (١٩٣٥).

– مجمع اللغة العربية – المعجم الوجيز– طبعة خاصة بوزارة التعليم العالي – سنة (١٤٣٠ هـ – ٢٠٠٩م).

– محاضرات في الفلسفة العامة – أ.د. محمد حسيني موسى الغزالي– ط سنة ١٤٢٦ هـ – ٢٠٠٥م – غزالة الخيس – الزقازيق – شرقية.

– مختار الصحاح ، لأبي بكر عبد القادر الرازي ، والمصباح المنير ، للمقري الفيومي.

– مختار الصحاح ، للشيخ الإمام / محمد بن أبي بكر عبد القادر الرازي – رتبه أ/ محمود خاطر بك– المطبعة الأميرية بالقاهرة – سنة (١٣٤٥ هـ – ١٩٢٦م)

– مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي "دراسة نقدية في ضوء الإسلام" – أ.د. عبد الرحمن بن زيد الزنيدي.

– معيار العلم – أبو حامد الغزالي.

– مفاتيح الغيب / للإمام / فخر الدين الرازي– الطبعة الثالثة – دار إحياء التراث العربي – بيروت – لبنان – بدون تاريخ.

– ميزان العمل ، لأبي حامد الغزالي – ط. دار الكتاب العربي – بيروت – سنة ١٣٩٩ هـ ، ومصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي – أ.د. عبد الرحمن الزبيدي.

– نظرية المعرفة بين القرآن والسنة – أ.د. راجح عبد الحميد الكردي.